الصحافة العلمية والنهضة الشرقية

رسالة المقتطف(١)

حضرة صاحب المعالي : سيداتي وسادتي :

مهما اختلفت آراء الكتاب والمفكرين ، وتشعبت مذاهبهم في النظر الى ماهية التاريخ ، وتحديد العوامل التي تدفع بالحضارة الى الامام ، ووصف مظاهر العمران ووجوه ارتقائه . فلا ريب في ان الكل مجمعون على ان التاريخ في صميمه انما هو حديث ارتقاء الفكر البشري وانطلاقه من قيوده وابداعه في ما تبه

فبالفكر تغلب الانسان على طوائف الاحياء التي كانت تنازعهُ البقاء في ميدان الوجود . وبالفكر تحرر من قيود الاوهام التي كانت تقعد به عن النهوض والجري في مضمار الرقي . وبالفكر سيطر على عناصر الطبيعة ونفذ الى مكامن اسرار الحياة : تطلع الى الكواكب فقاس أبعادها واجرامها وحلل عناصرها وعيَّن نسبها ومقاديرها . والى الجراثيم فدرس طبائعها ووسائل استخدامها واتقائها . والى العقل فكشف عن اصول التفكر والحفظ والغريزة والعاطفة والعادة . والى الاحياء فقرر نواميس نشوئها وارتقائها . وبالفكر ايضاً تحكم في قوى الطبيعة وأخضعها لطلبه . فطوّق الارض باسلاك الاثير . وجاب البحار على سدن طافية . وحلّق في الجو بجناح وبغير جناح . وتصدى لحالك الظلام فبدد غياهبه بانوار تلبس الليل جلباب النهار . ووصل بين ضفاف الاثير بكبار هي في الحقيقة أشعار رائعة قوامها الخيال والذكاء والجان والحديد

***

والصحافة أيها السادة ، الصحافة الراقية التي تنظم في سلك نشراتها اليومية انباء العمران من اربعة اقطار المعمور . فتجمع بين التدوين النزيه والنقد المنصف . وتعتمد في كل ما تذيعهُ على الرأي المخلص الناتج عن الروية والعلم . والعاطفة الشريفة يلطفها ويضبطها العقل الراجح والحكم المعتدل . والبداهة المصقولة بالاختبار . والاستقلال القائم

(١) الخطبة التي القاها محرر هذه المجلة في حفلة تأبين المرحوم الدكتور صروف التي اقيمت في دار الاوبرا الملكية في ٣ مارس الماضي . راجع وصف الحفلة وما قيل فيها من الخطب والقصائد في هذا الجزء صفحة ٥٥٣ وما بعدها

على السعي في سبيل النفع العام — هذه الصحافة ايها السادة قوة من قوى العمران الحديث خلع عليها احد الكتاب الفرنسيين ثوب الملك ولقبها بصاحبة الجلالة وهي جديرة بذلك

وحين أنتقل من التعميم الى التعيين أخص بالذكر الصحافة العلمية التي يقيم اصحابها في جو هادئ بعيد عن منازعات السياسة ومشاغبات الحياة وقد آلوا على انفسهم البحث عن الحقيقة ونشرها بين الناس فاقول انها مظهر من أمجد المظاهر للارتقاء الفكري الذي ذكرت وركن من امتن الاركان التي تقوم عليها الحضارة في القرن العشرين

ففي ساحتها تلتقي اقلام الكتاب والمفكرين بافهام القراء وهذا الالتقاء يولد احتكاكا والاحتكاك يبعث في العقول نوراً وفي النفوس ناراً. فهي تأخذ باليمين لتعطي باليسار. تأخذ من المبدع والعالم والمستنبط والكاتب والاستاذ. لتعطي الزارع والتاجر والصانع والمدرس والطالب. هي صلة الاتصال بين عالم الابداع الفكري وعالم التطبيق العملي. هي مرتبة متوسطة بين مباحث العلماء الفنية ومدارك الجمهور الذي يطلب الحقائق جلية واضحة، تقبلها العقول وتسيغها الافهام. والعلم لا يرتقي ايها السادة ولا ينال قسطه من الشيوع والتأييد، ولا تجتنى الفوائد التي يجب ان تجتنى منه. الا اذا اتصلت نتائج المباحث العلمية بمقتضيات العمران وتفاعلت في كل مصدر من مصادر الحياة الفردية والاجتماعية

لذلك كان بسط الحقائق العلمية ونشرها لازمين كتحقيقها وتحقيقها. وهذا البسط والنشر جانب من المهمة العظيمة التي تضطلع باعبائها الصحافة العلمية من نوع المقتطف

واني واثق كل الثقة بانهُ متى آن الاوان لكتابة تاريخ للنهضة الشرقية الحديثة على قاعدتين من الانصاف والتحقيق لا يسع المؤرخ ان يغفل نصيب الصحافة العلمية في اذكاء نورها وانارها. فالجهل ظلام والظلام عبودية. والعلم نور والنور حرية. والحرية تطلق امام العقل مجال الابداع وامام الهمة ميدان العمل. والعقل المبدع تدعمهُ الهمة العالية أساس لكل عمل موفق ونهضة حية وعمران صحيح

***

لنظرة أيها السادة الى تاريخ نشأة المقتطف. ولتطو بالخيال والفكر اثنين وخمسين سنة

من تاريخ الشرق نرود اعصاره ونرنو الى احواله ونتتبع مظاهر عظمته ويقظته حتى نستقر على راية في رأس بيروت نزل فيها جماعة من عمال الخير فأنشأوا معهداً للعلوم الحديثة كان رئيسهم في غايته : في ساحة هذا المعهد تلتقي العقول التي تروم الكشف عن اسرار الوجود . والنفوس التي تتطلع الى ادراك كنه الحياة ومبدع الحياة . تسربها على البحث العلمي القائم على الدقة والانصاف وتولجها هيكل الحقيقة في موكب من عرائس الافكار . لا نعرف للمذهب الديني سبيلاً يفسد علينا غايتنا . ولكننا نجعل الاصول الدين القويم المكان الاعلى في كل اعمالنا لانا نريد ان نخرج للحياة رجالاً تشد العقيدة الراسخة فيهم الثقل المثقف والرأي الحصيف

في هذا المعهد العلمي المنير نشأ المقتطف وترعرع

وعلى اقطابه الاعلام تلقى منشئه قواعد العلوم الحديثة واساليب التفكير الحر

وفي دوره ومعامله وأنديته طبعت نفسها بأن العمران بناء فسيح الرحاب يقوم على دعائم كثيرة اقواها والزمها دعامة العلم الصحيح والتهذيب الديني القويم

هناك تسلما قبساً من النور تشرأد في ارجاء الشرق

ولكن مصراً كانت منذ اقدم عصور التاريخ ولا تزال منأى للكريم عن الاذى ، فحضنت المقتطف ورحبت به وعطفت عليه ، لما كان سيف الاستبداد مصلتاً فوق رقاب الاحرار من ابناء سورية ولبنان ، فنزل المقتطف الديار المصرية على الرحب والسعة ، واتصلت اصوله بتربتها التي تستمد منها القوة والغذاء . وامتدت فروعه في جوها تتسامق الى افسح الاجواء . تأخذ من الحياة المصرية وتعطيها حتى غدا بتمصيد حكامها وعلمائها وأعلامها منارة تبسط من ناصيتها انوار العلم على بلدان الشرق

***

خمسون سنة من التاريخ ! والحضارة سائرة سيراً حثيثاً الى الامام . ففي الآراء والافكار تنبه وتعديل . وفي الآداب والاخلاق والمعتقدات ثورة وانقلاب . وفي امور المعيشة تقدم وتغيّر لا يضاهيهما تقدم ولا تغير في كل ما سبق من عصور التاريخ . وفي كل فروع العلوم وأبواب البحث اكباب على كشف المجهول واستقصاء الاسباب الاولى . والعلماء من كل قطر منبثون في كل ناحية يبحثون ويمتحنون ويكتشفون ويستنبطون لا يعرفون الى الهزيمة سبيلاً ، ولا يقعد بهم عن تحقيق اغراضهم مشقة او

مرض او موت . وموكب الغم سائر الى الامام وفي كثير من الاحيان على الشلاء مبدعيه

هذا من جهة . ومن جهة اخرى نرى الطبيعة هي هي ، انها تحدي الزكائب. وعلى النفوذ الى مكامن اسرارها تعلق ابعد الغايات . كواكب وسيارات واقمار ومذنبات تسير في الفضاء. وصخور تتدحرج على سطح الغبراء تاركة آثارها في صخورها وجباتها . وانهار تختفر مجاريها في التراب . وحيوانات تبقى هياكلها في طبقات الثرى . ونباتات تكتب قصيدتها في اطباق الفحم. ورجال يقلبون الغامر عامراً والعامر جنة تجري من تحتها الانهار . فالهواء يدوي بالاصوات . والجو حافل بالاشارات . والارض كلها رقعة دوّن فيها تاريخ الاحياء وغير الاحياء . والرقعة في ظرف مختوم لا بد من فض ختامه واعلان محتوياته واسراره

فمن اكنز العلوم النظرية دقة وغموضاً الى اكثرها انطباقاً على الاعمال وابعدها أثراً في معايش الناس، ومن أدق المعادلات الرياضية العالية الى اعوص الآراء الجديدة في شكل الكون وبناء المادة . الى أحدث المستنبطات والمكتشفات في الزراعة والصناعة والمواصلات والخاطبات وأسباب المرض ووسائل العلاج — كل ذلك اصاب من التقدم في نصف القرن الماضي ما يجعله من اعظم العصور مقاماً في التاريخ

وقد كان المقتطف في كل ذلك رسولاً أميناً بين حضارة الشرق وحضارة الغرب. في ميدانه الرحب التقت اقلام العلماء والمفكرين من ابناء الحضارتين . آنا تتفق آراؤهم وآنا تختلف . ومنشىء المقتطف واقف للعلم بالمرصاد ، يقتطف منهُ كل طارف وكل تليد، حتى غدت مجلته مدرسة سيارة ، ومنارة جوّالة ، ورابطة تضم ابناء الشرق في وحدة معنوية متينة في زمن عزت فيه اسباب التضامن ونشت عوامل التفرقة والانقسام

واذا سمحتم لي ايها السادة ان أجرد هنيهة من علاقتي الشخصية بالمقتطف واصحابه لجردت من مجلداته السبعين ، شخصاً معنوياً اضعه في مرتبة فرنسيس باكون الفيلسوف الذي نفخ الحياة في الجمعية الملكية الانكليزية وجماعة الانسكلوبيديين الفرنسيين وعلّم ان المعرفة تطلب للقوة والسيطرة لا للتأمل والتخيل والتكهن بالغيب . وقضى على منطق ارسطوطاليس . واقام التجربة والامتحان اساساً للعلم ، فكان بذلك رائداً مقداماً شقّ

الطريق امام العلم الحديث الذي تتخطت آثاره في كل مقومات العمران

***

فالمقتطف مجلة علمية صناعية زراعية ، كانت ولا تزال، لان منشئه رأى بتلك البصيرة النافذة التي تخترق الشور وتتعداها الى اللباب ، ان الشرقيين لا يستطيعون ان يباروا الغربيين في ميدان العمران الا اذا اخذوا اخذهم في درس العلوم الطبيعية وجعلها وسيلة لاتقان الزراعة والصناعة . ودرس العلوم الفلسفية وجعلها قاعدة للآداب والاخلاق والمعاملات . وعرفا ايضاً ان الاقتصار على تدريس قواعد هذه العلوم في المدارس لا يفي بالحاجة لان ثيار العلم لا يعرف السكون . وجياد المستنبطات أبداً في سباق . والسابق السابق منها الجواد

وأية ضائقة من ضوائق الغربيين عالجها المقتطف ؟

كل العلوم على الاطلاق . ولكنهُ قدّم منها العلوم التي يربون بها اطفالهم حتى لا يموت منهم نصف ما يموت من اطفالنا . ويحفظون بها صحتهم حتى لا يبلغ متوسط وفياتهم نصف متوسط وفياتنا . ويصنعون بها آلاتهم وادواتهم حتى يمخروا البحار بمراكب كالرواسخ ويخترقوا القفار بمركبات من النار . العلوم التي يقطعون بها الشجر ويسحقونهُ ويصنعون منهُ الورق ويطبعونهُ في يوم واحد . ويندفون القطن ويغزلونهُ وينسجونهُ بالبخار وبالكهربائية . ويكثرون بها جني الارض واصلاح انواع المواشي وخلق انواع جديدة منها . ويطوقون بها الارض بامواج لطيفة ينقلون على اجنحتها السحرية الصور والاصوات

فالوتر الاول الذي ضرب عليه المقتطف انما هو وتر العمل وتطبيق العلم على مقتضيات العمران

ولكنهُ عني ايضاً بنشر العلوم الفلكية والرياضية المجردة والمباحث الاثرية والتاريخية وسِيَر الرجال والنساء الذين كانت سيرهم واعمالهم ثروة عامة . لان نشرها يفتح امام العقل ابواباً مغلقة من حكمة الله وغرائب الطبيعة واسرار الحياة فتشحذ القرائح وتنضي الهمم وتحرك كامنات النفوس . ثم لا تلبث ان تجري في عروق الادب والفن دماً حاراً فتيًّا تستفزّهُ الحياة وتستثيرهُ بآمالها وآلامها

يضاف الى ذلك ان لنشر هذه العلوم والمباحث فوائد عقلية غير الفوائد العملية والادبية التي ذكرت . ذلك انها تعوّد القراء العناية بطلب الحق. وتعلمهم ان يكونوا على

تم الانتباه لان الطبيعة تناجينا دائما لتكاشفنا باسرارها. فتدربهم على ان يكونوا ذوي اقدام وصبر على المكاره لان مسالك العلوم لا تخلو من العقبات والرجل الرجل من يصبر حتى يتزع الفوز من انياب الفشل

هذه هي العلوم التي عني بها المقتطف . وحث على الاخذ بها والتوفر عليها وقضى حتى الآن اثنتين وخمسين سنة يقتطف ثمارها من حدائق الغرب ويزفها شهراً شهراً الى ابناء الشرق على ما يقتضي ذلك من « الجهد العظيم في وضع المصطلحات العلمية العربية والشجاعة الادبية في نشر الآراء الجديدة والمذاهب المستحدثة والاحاطة بفروع المعارف على تعددها وتشعب مسالك البحث فيها »

هذه هي مهمته كما افهمها . هذه هي رسالته الى المدنية العربية كما كانت وكما اتمنى ان تظل . واني لاغتنم هذه الفرصة التي تملأ جوانحي حزناً وأسى فاقطع على المقتطف والقائمين بانشائه واصداره عهداً بان يجعلوا هذه الغايات العظيمة دستوراً لهم ومناراً

***

أيها السادة : يقولون ان هذه الحضارة القائمة على اركان من العلم الطبيعي والفلسفة المادية تحمل في طياتها بذور فسادها واضمحلالها

أفلا نستطيع نحن ان نمزج علم الغرب بشطر من فلسفة الشرق وان نخفف مادية الغرب بشيء من روحانية الشرق فنخرج للدنيا وللحياة حضارة جديدة فلا تكون حضارة مصرية فحسب. ولا حضارة عربية فحسب . بل حضارة عالمية تجعل معمر كبة لفلاسفة السودان كما هي كعبة لعلماء الآثار وارباب السياح

انا اعلم ان الطريق امامنا وعر وشاق

وان المعترك للفوز والسيطرة محتدم الوغى حامي الوطيس

وان سبيل السودان مرصوف برفات الامم

ولكن بجدة هي الامة التي يسقط أبناؤها في هذا الميدان يصعدون انفاسهم الاخيرة وهم يسلمون المصباح لمن يليهم من المجاهدين

تلك هي الامم التي تكتب اسماؤها واسماء ابنائها باحرف من نور في صفحات الخلود